

تقديم الطبعة الثانية

للأستاذ الدكتور أحمد عكاشة

أبدأ بتهنئة المؤلفين د. عمرو شريف، و د. نبيل كامل بالكتاب الهام والشائق «المخ ذكر أم أنثى». فهو كتاب متميز متفرد في المكتبة العربية، ولا أتذكر حسب معلوماتي أنه قد خصص أحد المؤلفين العرب كتابًا لمناقشة هذا الموضوع، إنه موضوع شائق حساس، يثير الكثير من التساؤلات العلمية والاجتماعية والدينية والسياسية.

لقد نجح المؤلفان في تبسيط أصعب ما خلق الله، ألا وهو المخ، بأسلوب رشيق، وفهم عميق، ودراسة متأنية، وثقافة علمية جادة. لذلك تجد في كل صفحة من الكتاب العمق الدارس، والجهد المضني، والتفاني في التفسير والتحليل والتبسيط.

ويعتمد المؤلفان على ثورة الأبحاث العلمية الخاصة بوظائف المخ البشري، من خلال الأبحاث الخاصة بتقنيات تصوير المخ، وكذلك أبحاث علوم البيولوجيا الجزيئية، بالإضافة إلى الأبحاث الخاصة بالبيئة وعلوم الاجتماع.

وتدل بداية الكتاب على تميز وتفرد وتجديد في المنهج العلمى . حيث يبدأ بتأملات وتساؤلات، يعقبها إجابة العلماء وطرح للمفاهيم التى تعتمد عليها الدراسة. ثم يعرض كيف تنشأ الأنوثة والذكورة.

ويقوم الكتاب بعد ذلك بدراسة جوانب التشابه والفرق بين مخ الذكر ومخ الأنثى، فى جميع النواحي التشريحية والهورمونية والجزيئية. ثم يعرض تأثير كل ذلك على الحياة البيولوجية والنفسية، كما يتطرق إلى الوظائف العقلية المختلفة كالذكاء والذاكرة، وانعكاس كل ذلك على سلوك كل من الجنسين.

وإذا كانت نساء العالم يطالبن بالمساواة مع الرجال، ولهن الحق فى ذلك، فإن قراءة هذا الكتاب تبين لنا أن المساواة ليست فى صفهن، لا لأنهن يتميزن ويتفوقن على الرجال فى بعض المظاهر البيولوجية والنفسية والاجتماعية، بل لأنه ببساطة لا يمكن بيولوجيا مقارنة بنية ووظيفة مخ الإناث بمخ الذكور!!

وليسمح لى القارئ أن أعرض بعض المقتطفات من كتابى «التشريح النفسى للشخصية المصرية» (٢٠٠٩)، من الفصل الذى بعنوان «مخ الإنسان ذلك المجهول: الغضب والهلع والاكئاب مجرد تغيرات فى كيمياء المخ»:

ما زال المخ البشرى حتى الآن يحير العلماء. ورغم التقدم العلمى الرهيب، فما زال الكثير من خباياه مجهولاً. وإذا كان العلماء قد استطاعوا التعرف على مكونات المخ تشريحياً ووظيفياً، مما مكّنهم من علاج الكثير من أمراضه، فإنهم فى بحثهم عن العقل الذى هو جوهر المخ اكتشفوا أنهم ما زالوا أمام لغز كبير.

وللإجابة عن السؤال حول ماهية العقل، نقول: إن العقل هو الوظيفة العليا فى المخ، وتضم العاطفة والتفكير والسلوك. وقد كان العقل دائماً محل خلاف

على مر العصور، فقد وضعه الفلاسفة في أماكن مختلفة في الجسم، فقال أفلاطون أن العقل يقع في المخ، وجاء أرسطو ليقول أنه موجود في القلب. وأخيرًا عرفنا أن العقل موجود في المخ.

وفي السنوات الأخيرة، نشطت الأبحاث العلمية التي تريد التعرف على العقل بصورة أعمق. وذلك من أجل الوصول إلى حقيقة الذكاء والوعي والذاكرة واللغة واتخاذ القرار والانفعال. لقد كان يُظن أن أماكن هذه الوظائف محددة وثابتة في المخ، ثم أثبتت الأبحاث الحديثة أنها نشاطات وظيفية، ليست محددة في مكان ثابت.

هناك كم كبير من الاتصالات شديدة التعقيد، تتم بين خلايا المخ وبين مراكزه المختلفة لأداء وظيفة واحدة مثل الذاكرة، التي تتطلب تشغيل آلاف من الخلايا العصبية في وقت واحد، وبأسلوب منظم، خلايا تحتل أماكن كثيرة بخلاف الأماكن التشريحية التقليدية المعروفة سابقًا.

ومن دراسات العلماء الجادة لمعرفة حقيقة العقل، أبحاثهم حول الوعي. لقد وجدوا أن الوعي يعتمد أساسًا على نشاط التكوين الشبكي، الذي هو مجموعة من الخلايا العصبية الموجودة في جذع المخ، والتي تحافظ على النشاط الدائم لقشرة المخ، حتى أن بعض العلماء يرون أن الروح موجودة في هذا التكوين الشبكي! ويبقى الإنسان واعياً ومستيقظاً ما دام هذا التكوين الشبكي يقوم بتنشيط القشرة المخية، وينام الإنسان فور توقف عمل هذا التكوين.

وإذا كان المعتقد سابقًا أن تشريح مخ المرأة يشبه تقريبًا تشريح مخ الرجل، مع فارق بسيط في الحجم لصالح مخ الرجل، يرجع إلى صغر الجمجمة عند

المرأة، فإنه لا توجد علاقة مباشرة بين حجم المخ ونسبة الذكاء. فالفيل مثلاً يملك مخاً أكبر من الإنسان ولكنه ليس أذكى منه. وعندما تم تشريح مخ أينشتين بعد وفاته، لم يجد العلماء أى فرق بينه وبين مخ أى متخلف عقلي. إن الاختلاف هو في طريقة أداء الخلية العصبية في المخ لوظائفها.

لو أكملنا رحلتنا الخيالية مع العقل وسألنا: هل نستغل قدراتنا العقلية بنسبة ١٠٠٪ أم أقل من ذلك بكثير؟ وللإجابة نقول: إنه إذا كنا لا نعلم بالتحديد ما هي طاقات المخ البشرى، فلا شك أن الإنسان لا يستغل إلا قدرًا ضئيلاً من إمكانياته العقلية. ولا أحد يعرف بالضبط - حتى الآن - ماذا يحدث لو استطعنا استخدام قدر أكبر من قدرات المخ، ربما ينتج عن ذلك تداخل في الوظائف.

ولا شك كذلك أنه يمكن تحسين أداء العقل البشرى عن طريق التدريب. فالذاكرة مثل المكتبة، يمكن تحسين الخدمة بها عن طريق العناية بترتيبها، وليس بالضرورة زيادة سعتها

و في مجال البحث عن اختلاف عمل مخ الرجل عن مخ المرأة، أجريت عدة أبحاث تم فيها تصوير نصفى المخ لدى مجموعات من الرجال والنساء أثناء عملهم، حتى تكتمل الصورة وظيفياً كما اكتملت تشريحياً.

ومنذ ما يقرب من عشر سنوات، توصل العلماء والباحثون إلى وجود اختلافات بسيطة في التشريح بين مخ الرجل ومخ المرأة. ولكن لزمّت هذه الأبحاث الصمت تجاه الإجابة عن مدى تأثير هذه الاختلافات على عمليات التفكير عند كل من الجنسين.

ثم بفضل التطور الذى طرأ على أجهزة تصوير المخ استطاع العلماء التعرف على طريقة عمل المخ عند كل من الرجال والنساء، لقد أصبح بالإمكان مراقبة عمل المخ خلال عمليات التفكير والإحساس والتذكر، لأول مرة فى تاريخ البشرية. كذلك توصل العلماء هذا العام إلى إثبات أن هناك اختلافًا فى الشحنات العصبية الكهربائية الصادرة عن مخ كل الجنسين، سواء عند ممارسة النشاطات العقلية كالقراءة أو فى حالة الاسترخاء.

لقد ثبت أن هناك انفصلاً بين مشاعر الرجل ومنطقه. بمعنى أن الرجل عندما يجب يجب بلا منطق وعندما يمتطق الأمور فإنه يمتطقها بلا عاطفة. فى حين أن المرأة تمتطق الأحداث بعاطفية، وفى قمة عواطفها لا تتخلى عن المنطق.

وإذا كانت المرأة أكثر استعدادًا للإصابة بالاكتئاب، وكنا نرجع ذلك إلى الظروف الاجتماعية التى تحيط بها، فقد تبين من الاكتشافات الحديثة أن المرأة عندما تتسلط عليها الأفكار الحزينة تبذل جهدًا عقليًا أكثر مما تبذله عند حل أعقد معادلات الرياضة الحديثة.

وهذا لا يعنى أن المرأة نكدية. إن المرأة مثل الرجل قد تكتأب عند التعرض للإجهاد أو الشدة، ولكن بعض النساء - والنسبة ليست كبيرة - يتعرضن للاكتئاب قبل الدورة الشهرية وبعد الولادة. كما تعانى المرأة من الاكتئاب عند الوصول إلى ما يسمى سن اليأس، وهى تسمية خاطئة. فالقرآن الكريم ذكر «يأس المحيض» والمقصود به اليأس من الإنجاب فقط. لا شك أن بعض السيدات يتصورن أن انقطاع الطمث هو نهاية لحياتهن الأنثوية، إن ذلك حصيلة لسنوات أهدرت فيها حقوق المرأة، عندما كانت وظيفتها فى المجتمع هى الإنجاب. لقد تغير الوضع تمامًا خلال المائة سنة الأخيرة، وأصبح للمرأة كل الحقوق وأصبحت

هذه المرحلة هي قمة النضوج الفكري والعاطفي والجنسى دون خوف من الحمل والإنجاب.

و أخيرًا نقول: لا جدوى من الهروب. فنحن على أبواب عصر جديد يحمل ملامح مختلفة تمامًا للمرأة، بعد أن وضعتنا الأبحاث العلمية الحديثة أمام معلومات مغايرة لكل ما عرفناه عن النساء. فالأنثى الضعيفة.. المنكسرة.. الباحثة عن الحماية.. صورة قد تدخل قريبًا أرشيف الذكريات.

لا جدوى من الهروب. المرأة قوية جسديًا، والأرقام القياسية التي تحققتها أثناء الدورات الأوليمبية تزداد بمعدل أسرع من الرجل، بل تكاد تقترب من الأرقام القياسية له.

المرأة قادرة على تحمل الضغوط النفسية والعصبية، وقد أيد اشتراكها في رحلات الفضاء الخطرة هذه الحقيقة.

المرأة لا تعرف الضعف، فهي تملك من الثبات والقوة ما يسمح لها بارتكاب أصعب الجرائم وأكثرها وحشية، والإحصائيات تقول: عدد النساء القاتلات في تزايد ملحوظ.

لا جدوى من الهروب. المرأة تغيرت.. جسديًا.. ونفسيًا.. والأخطر، عقليًا، بعد أن أكدت الأبحاث الأخيرة أن عقل المرأة مختلف عن عقل الرجل.

إن التحدى الحقيقي الذى يواجهه إنسان هذا العصر ليس اكتشاف كواكب مجهولة.. ولا أقمارًا غامضة تجوب الفضاء الفسيح.. ولكن اكتشاف قدرات الإنسان الخفية وأخطرها العقل، وخاصة عقل المرأة.

إن كتاب «المخ ذكر أم أنثى» رحلة في أشد العوالم غموضًا، ألا وهو المخ. وفي أثناء إبحارنا مع المخ تتجلى عظمة الخالق.

وإذا كان المؤلفان قد بذلا جهدًا كبيرًا لعرض كيفية عمل بلايين الخلايا العصبية، التي تتفوق على أكبر كمبيوترات العالم، فقد تمكنا بنجاح وتفوق من تبسيط معجزة الخالق... المخ.

وأنصح كل مثقف وكل من يريد زيادة إيمانه، بل وأنصح الأطباء أنفسهم بالاطلاع على دسامة العلم، وعمق الإيمان في هذا الكتاب الفريد المتميز.

أ.د. أحمد عكاشة

أستاذ الطب النفسى بكلية الطب . جامعة عين شمس
رئيس مركز بحوث الصحة النفسية لمنظمة الصحة العالمية
رئيس الجمعية المصرية للطب النفسى
رئيس اتحاد الأطباء النفسيين العرب
الرئيس الأسبق للجمعية العالمية للطب النفسى